دكتور محمد محمد أبو موسى
أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

القوس العذراء
وقراءة التراث

يطلب من
مكتبة وهبه
١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين
القاهرة : ت ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م

دار غـريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص٠ب ٥٨ (الدواوين) ـ تليفون : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تُعَدُّ رسالة «القوس العذراء» من روائع الأستاذ محمود شاكر التى تحتاج إلى فضل نظر ، حتى ننتفع بها كما ينبغى من حيث هى منهج فى قراءة التراث .

وحالها فى ذلك كحال كثير من روائعه وودائعه التى هى أحوج إلى المدارسة والتحليل ، والمناقشة ، لأنها منهج مستقل وطريق مُغَاير ، وحسبها أن تكون حياتنا الفكرية والأدبية فى ميزانها حياة فاسدة ، وأن الكتب التى أثرت فيها تأثيراً بيناً وطُيِّرَ ذكرها فى الناس كُتُبٌ فارغةٌ ، وأن تقاليدها العلمية التى ترسخَّت فيها ونُميت إلى رجال عُرفوا بأنهم بُنَاةُ هذه التقاليد كل هذا زيف .

ثم - وهذا مهم - إن تاريخ هذه الأُمة ، وحضارتَها ، وتراثها ورجالاتها ، كل ذلك كان ولايزال مستهدفاً لهذه

الحركة فقُبِّح التاريخ ، وزُيِّفت الحضارة ، وامتُهِن التراث ، وغُبِّرَ فى وجوه الرجال .

وجرثومة هذا كله ترجع إلى من نُسَمِّيهم الكبار ثم أَخذه عنهم من يأْخذ من غير نظر ، وراج ذلك ، وشاع ، وأُلف ، رغم نكره ، حتى صار أَبناء هذا الجيل :

« يتلمسون المعابة لأَسلافهم ، وآبائهم فى خبر مطروح أَو كلمة شاردة ، أَو ظاهرة محدودة ، فيبنون عليها تعميماً فى الحكم ، يُتِيحُ لأَحدهم أَن يَسْقِى ما فى نفسه من حب القدح والتَّرَدِّى فى طلب المذمة ، أَو أَن يتقلد شعار ...التجديد ، أَو الإِغراب ، طلباً للذكر ، وحُبًّا للصيت » (١) .

ويتناول هذا البحث رسالة « القوس العذراء » من حيث هى منهج فى قراءة التراث ، وقد عُنينا بالتراث تحقيقاً ودراسة ، على الحد الذى كان ينَّافى هذين البابين ، ولكن العناية بقراءة التراث على الحد الذى سوف نبينه فى هذا البحث ،

---

(١) الشعر ص ١٣

والتى تَستَخرِجُ مضمره ، وتجهر بهمسه وتبين عن وَحْيه ، فتلك ما لم نَصَلْ فيه إلى حد يذكر .

وقد رأينا فى هذه الرسالة طريقاً قِوَماً لهذا الباب ، وكأَن الأستاذ شاكر شق هذا الطريق ، وصَيَّره مستَتِبًّا لاحباً فى هذه الرسالة وأَحسب أَن هذا من مقاصدَه .

***

من الحقائق المقررة أَن نهضات الأُمم لا تكون إلا بعقول أبنائَها واجتهاداتهم الخلاّقة ، وأَن تجديد العلوم ، والمعارف ، ليس له إلا طريق واحد ، هو أَن نُعمل عقولنا فى هذه العلوم ، والمعارف وأَن نستخرج منها مضموناتها ، المضمرات فى كلماتها ، أو التى هى مندسَّة مبهمة فى نفوس كاتبيها ، غمغمت بها آثارهم غمغمة تاهة لايَلْتقطُها إلا الباحث الدّرِب .

هكذا يجب أَن يكون تجديد علومنا ومعارفنا،وهكذا فعل الناس فى عصرنا ، وهكذا فعل سلفُنا فى عصورنا الأُولى ،

ولم نعرف أُمة بَنَت حضارتها بعقول غيرها ، ولا جدّدت معارفها بمعارف غيرها .

لن يكون هناك نمو إلا إذا كان الامتدادُ امتداداً من داخل الحياة الفكرية ، والأدبية ، يتناسل بعضه من بعض ، كما يتناسل جيل من جيل، ولن يكون هناك تطور إلا إذا استخرجت هذه المرحلة مما قبلها ، ولن يتم هذا إلا إذا دارت عقولنا ، وقلوبنا فى هذا الفكر الذى بين أَيدينا ، ودارت به ، وعانت تحليله ، والاستنباط منه ، وكانت هذه الأَفكار هى مادة الدرس فى حلقات العلم ، فى كل جامعة . ومادة النظر بين يدى كل كاتب ، الكل مُتَّجه إليها ، متعاون فى بابها ، وحينئذ ينبلج نور معرفة جديدة ، وتتخلق حياة فكريةوأدبيَّة جديدة ، تُولد مما بين أَيدينا ، وتُنسبُ إلينا ، ونُنْسَبُ إليها ، ونقدِّم من خلالها تَجربَتنا وذَاتَنا ، ورسالتنا ، ويقرأُ الناسُ فيها كفاح أَفئدتنا ، التى تستمد مددها من نسيجنا الحضارى وتاريخنا المتميّز.

والنهضات الأَدبية والفكرية ، تعنى مزيداً من التأَلق ، لرجالات الفكر والأَدب فى تراث الأُمة ، مهما أَوغلوا فى القدم .

فلا يزال «هوميروس»، ورجالات عصره ، يتألقون فى سماوات أقوامهم ، مع اختلاف الأَطوار والأَحوال .

وقد أَكسبت النهضة الحديثة لأُمم الغرب، آثار حكماء اليونان مزيداً من العناية ، والدراسة ، أَزْكَتْ هذه الآثار، وكشفت جوهرها، وأَبَانَتْ عن معادنها ، وذلك يفوق بكثير ما أُتيح لها فى غير هذا العصر ، ثم إن هذا العصر لم يتجاوزها إلا بعد أَن اتكأَ عليها ، وأَدْخلها فى صميم بنيته ، ولو بُعث هؤلاء الحكماء وقرأُوا الحواشى والأَعلاق، التى علقها الناس على كلامهم لعرفوا بعضاً ، وأَعرضوا عن بعض ،

وقد مضينا من أَول إفَاقتنا فى هذا العصر على غير هذا الطريق، ولم يكن موقفُنا من أَعلام العلم فى أُمتنا موقفاً منصفاً، لم نعكف على تراثنا عكوفاً يجعله يتوهج فى ضمائرنا ، ولم تتأَلق فى سماواتنا فراقدنا ، وإنما خَبَتْ ، وطمسناها بأَيدينا .

تألق فى سمائنا رجال آخرون ، لانُحصيهم عدًّا ، وحَيْثُما قرأت لمعت كوكبة، من الأَسماء الأَعجمية بين عينيك، وصرنا نمثل هامشاً على كتاب الحضارة الغربية المسيحية .

وفى الوقت الذى نقول فيه إننا يجب أن ننتفع بتجارب الآخرين نغمض عيوننا عن تجربتهم الحقيقية فى تأسيس نهضتهم ، ونكتفى باصطناع ما أَبدعوه لأَن ذلك أَيْسرُ السبيلين.

وقد أُبْعِد كثير من أَذكيائنا عن هذا التراث الذى غُيِّب عنهم إبَّان تكوينهم، ووقر فى نفوسنا أَنه قديم يرتبط مضمونه بأَزمنته، وأَننا حين نواجه عصرنا به كالذى يدخل ساحة الحرب متقلداً سيفاً ورمحاً ، وقالوا إن الشعر القديم شعر عالج مشاكل جيله ، وأَحسن وصف النوق ، والأَطلال ، وتلك أُمة قد خلت .

وفى هذا السياق تأْتى « القوس العذراء »، لتضع منهجاً فى القراءة ، والتمثل والفهم ، والاستخراج ، ولتبعث الشماخ ابن ضرار القيسى وترفعه فوق القمم العوالى فى دوحة الشعر صدَّاحاً ، شجىَّ الغناء ، ثم تنطقه بالقول الفصل فى قضية من أَطرف القضايا .

***

ونبدأ بالوقوف عند هذه الرسالة ، لنتعرّف على جدة أَفكارها ، وطرافة قضاياها ، وحداثتها ، وليس هذا مدخلا

للمقصود وإنما هو من جوهره ، من حيث إن غاية البحث هو الكشف عما انطوت عليه هذه الرسالة ، من طريقة فى استنطاق كلام القدماء واستخراج دلالاته ، وتحليل إشاراته ، ومضمون الرسالة هو ما أنطق به الأستاذ شاكر شاعرنا القديم ، وما استخرجه من تحت لفظه .

وتدور هذه الرسالة حول جملة من الأفكار والخواطر والوسوسات انبعثت فى نفس كاتبها بلقاء بينه ، وبين صاحب لاتبلى مودته ، دار بينهما حديث فى شأن اتقان العمل ، وقد ذكر الأستاذ شاكر أنه لما قفل عائداً إلى داره أبى هذا الحديث « إلا أن ينْقلب عائداً معى فى الطريق ، يسايرنى ، ويصاحبنى ، ويؤنس وحشتى ، ويُسِرُّ إلىّ بوسوسة خفية من أحاديثه التى لا تتشابه ، والتى لاتتناهى والتى هى أيضاً لاتُمَلُّ » (١) .

أما الوسوسات التى أَسَرَّ بها هذا الحديث إليه ، فهى النظر إلى كل حىّ غير الإنسان من حيث إتقانه لما هو بصدده ، ثم النظر إلى الإنسان من هذه الجهة ، فكل حىّ غير الإنسان يمضى

---

(١) القوس العذراء ص ١٩

فى أمره ، وفى تدبير حياته ، وحياطة معيشته ، على سنة لاتتبدَّلُ، وهَدْى واضح لا يلتبس، تمرُّ الأَحقاب ، والقرون وتختلف البقاع ، والأَحوال ، وتأتى من هذه الأَحياء أَجيال بعد أَجيال « والنهج فى كل درب من دروبها هو هو لايتغيّر ، والهدى فى كل شأن من شئونها هو هو لايختلف ، تولد الذرّة من النمال ، وتنمو ، وتبدأ مسيرتها فى الحياة ، وتعمل فيها عملها الجدّ ، وتفرغ من حق وجودها ، ثم تقضى نحبها ، وتموت ، هكذا هى مذ كانت الأَرض ، وكانت النمال ، لا تتحوّل عن نهج ، ولا تَمْرُق من هدى ، وتاريخ أَحدثها ميلاداً فى مَعْمَعَةِ الحياة ، كتاريخ أَعرق أسلافها هلاكاً فى حومة الفناء ، لاهى تُحدث لنفسها نَهْجاً لم يكن ، ولا هى تَبْتَدِع لوارثها هَدْياً لم يتقدم » (١)

لم تدرك هذه الكوائن الفروق بين الأَشياء فعاشت بمنجاة من حومة الاختيار ، تلك التى سقط فيها الإِنسان وقلق ، وتحيّر ، فتمايزت أفراده ، واختلفت أَعصره ، وأَجياله ، وقامت له حضارات ، وانهدمت حضارات .

---

(١) القوس العذراء ص ٢٠

يقف الكاتب عند هذا العالم الحيّ الأَعجم، والذى لاتختلف أَواخره عن أَوائله ، والذى ترى أَجناسه كأَن كل جنس منها فرد واحد ، يتكرر فى هذه الآحاد التى لا تَتَنَاهى ولا تختلف ، والذى يعيش فى الزمن وهو مسالم له ، فلم يقلق الذى فات منه بخبر سلف صالح ولا طالح ، ولم يعرف له تاريخاً نبيلا ولا خسيساً ، ولم يَتَطَلَّع إلى الغد كيف يكون ؟ وإنما طرح ذلك كله .

ثم وقف الأستاذ بعد ذلك ، عند الإنسان وعمله فأَفصحت نظرته عن إدراك عميق لقدرات الإنسان ، وطاقاته الهائلة .

وذكر أَن هذا الإنسان كان فى مطلع فجره على حال تشبه أَحوال غيره ، من حيث قوة الفطرة ، واقتيادها له ، وإيقاع حركته على وفق تصاريفها ، وظل أَمره كذلك زمناً .

« فلما ثبت عليها وتأَيّد ، وتأَثل فيها وعمَّر ، نظر إلى معروفها فاعتبر، وهجم على مجهولها فاستنكر ، فكأَنه من يومئذ حاد عن النهج الذى لايختل ، ومرق من الهدى الذى لايتبدل » (١)

---

(١) القوس العذراء ص ٢٣

وهذا هو الموقف الفاصل فى مسيرة الإنسان على هذه الأَرض، ومرده إلى عقله « الذى نظر إلى معروفها فاعتبر ، وهجم على مجهولها فاستنكر » وحينئذ تاهت منه بوارق الهدى القديم ، الذى كان يمضى بنوره ، كما هو حال كل كائن غيره ، من تلك التى بقيت ماضية على شريعة من غرائز النفوس لاتتبدل .

وقد وصفت الرسالة حالة الإنسان بعد ما تَاهت منه هذه البوارق وصفاً بليغاً جاءَ فيه « ابتلى من يومئذ فتمرس ، وأُسْلِم لمشيئته فتحيّر ، جار وعدل ، فعرف وجرّب ، أَخطأً وأَصاب ، ففكر وتدبّر ، نزع إلى النهج الأَول ، فأَخفق وأدرك ، تاق إلى الهدى القديم ، فأُعْطى وحُرم ، احتفر ذخائر الفطرة ، فأَكدت عليه تارة ، ونبعت ، التمس شوارد الإتقان ، فندّت عليه مرة ، واستقادت »(١).

وهكذا صار الإنسان فى كَبَدٍ يتقاذَفهُ اليأس والأَمل ، ويضنيه النجاح والفشل ، واحتمل همًّا شريفاً ، من ويلات كدّه ، نحو النبع الأَول.

ثم إن إتقان العمل ، وأَخذ النفس ورياضتها على طريقه والمثابرة فى ذلك ، هو فى حقيقته سعى دائب ، نحو اكتشاف

---

(١) القوس العذراء ص ٢٤

الذات ، ورحلة جيّاشة ، تَتَوخىَّ القبس الهادى ، الذى خبا فى أعماق الإنسان ، وطمسه قلقه وتوقه ، إتقان العمل سعى نحو المجهول داخل النفس ، وهتك أَستاره ، وتمزيق حجبه ، وبمقدار ما يحصل الإنسان من درجات الإتقان يكونَ قربه من شاطىء الحقيقة الأَزلية المطمورة فى داخل نفسه ، والتى ضلّها يوم قلق وحاد .

وهذا هو الوجه فى ربط قيمة كل امرىءٍ بما يحسنه كما قال علىٌّ كرَّم الله وجهه ،فقيمة المرء فى تحقيق ذاته المنعكسه فى إتقان عمله.

« ولو دان الإنسان بالطاعة لفطرته المكنونة فيه منذ ولد ، لأَفضى إلى خَبئها التليد إذا ما استوى نَبْته واستحصد ، ولصار كل عمل يتعمله تدريباً لما استعصى منه حتّى يلين وينقاد ، وتهذيباً لما تراكم فيه حتى يَرِفَّ ويتوهج ، فإذا دَرِب عليه وصَبرَ أَزال الثرى عن نبع منبثق ، فإذا أَلحّ ولم يَمَلَّ ، انشقت فطرته عن فيض متدفق ، ويومئذ يُسفِرُ لعينيه مدبٌّ النهج الأَول ، بعد دروسه وعفائه ، ويستشرى فى بصيرته وميض الهدى المتقادم ، بعد ركدته وخفائه » (١)

---

(١) القوس العذراء ص ٢٨

وهذه المعانى كما ترى غريبة مستورة ، لا أَعرف أَحداً شق حجبها بهذا البيان . وأَبرز مكنونها بهذه الدِّقة قبل هذه الرسالة ، ومثل هذه المعانى التى تَقْتَنِصُ الخواطرُ الذكيةُ شواردَها ، لاتتلبَّس غالباً باللفظ المحكم ، والرصف المتقن ، لأَنها لمَّا تزل نافرة عن الأَلفاظ ، والأَمر هنا على خلاف ذلك .

والذين يعالجون صنعة البيان يقولون إنهم إذا أَرادوا العبارة عن معان مأْلوفة ، انسالت الأَلفاظ على أَسنة أَقلامهم ، أَما إذا وقعت فى أَفئدتهم شوارد المعانى وأَوابد الخواطر ، والتمعت فى آفاقهم سوانحها ، فإنهم أَحياناً يجدون ألسنتهم فارغة من الأَلفاظ ، وكأَن اللغة طُيِّرت منها فإذا قاربتهم قاربتهم وهى أَبيَّةٌ أَرِنة .

وهذا التفكير فى هذه المسأَلة حين يقارن بما يقوله أَهل النظر فيها يُرى حيوياً ، وعملياً ، لأَنه يجعل إتقان العمل والدأب فيه طريقاً واصلا إلى استنباط ودائع الفطرة ، وإثارة

كوامن الطاقات ، وتفجير ينابيع ثرة ، ومذخورة فى النفس يمكن أَن تستفيض وتستبحر ، وبالعمل وحده ، وبالمثابرة وحدها يكون التفوق ، ويكون إبداع روائع الأَعمال فى الفكر ، والصناعة والأَمر كله ، وبالمثابرة وحدها يمكن للمرء أَن ينتقل من طور من أَطوار الفكر والعمل إلى طور آخر، أَسمى وأَسنى ، وقل مثل ذلك فى الجماعات والأُمم .

الفلاسفة لايودعون أَفكارهم حول هذه المسأَلة تلك الروح العملية الخّلاقة ، ثم إنهم وإن كانت طبيعتهم النظر المتعمق ، لم ينفذوا إلى هذه الأَبعاد التى رمى إليها الأَستاذ شاكر ، من حيث التدسس فى غيب التاريخ ، والحديث حول الإنسان ، وهو على مدب أَقدامه الأَول .

ونظرتهم تدور حول القول بأَن الحيوان كله غير الإنسان يعمل صَنائعه بالإلهام ، والإنسان يتصرف بالاختيار ، وقد مُنح الحيوان نصيباً ضئيلا من الاختيار يُعينه على اضطراره ، كما أَن الإنسان رزق قدراً من الإلهام يُعينه على اختياره . وقوة

الاختيار فى الحيوان كالحُلم ، كما أَن قوة الإلهام فى الإنسان كالظل » (١)

***

العمل الذى هذا وصفه عمل مطلق غير مقيد بعلم ولا صناعة ، ولا فن ، وإنما هو كل ما يَنْفَصِمُ عن الإنسان مما أَحكمه ، وهو على مدرجة سعيه الحثيث المستكشف لبوارق الهدى الأَول يستوى فى ذلك أَعمال الذهن ، وأَعمال اليد ، وأَعمال القلب ، فكلها لاتنفصم عن الإنسان الذى هذا خبره إلا وهى مصبوغة بأَصباغ قلبه ، وموسومة بوسمه ، وهذا ما عهد الناس وصفه بالفنون . لأَن الأَشياء إنما تَتَّشِحُ بوشاح نفوس فاعليها إذا كانت تعبيراً عن لواعج هذه النفوس ، أَما ما يعانيه الإنسان فى تدبير حياته ، وحياطة معيشته فليس من ذلك ، وإنما هو من العمل .

وقد أَوجزت الرسالة طبيعة الفرق بينهما ـ كما يتصوره الناس ـ فى صورة سؤال يرد عليها حيث لم تفرق بينهما ، وإنما

---

(١) ينظر الإمتاع والمؤانسة جـ ١ ص ١٤٥ بتصرف .

جعلت الإنسان مفتوناً بكل ما ينفصم عنه ، لأَنه أَفنى فيه ضراماً من قلبه .

يقول الأستاذ « فلقد خشيتُ أَن تقول لى : إنما أَنت تحدثنى عن الفن ، فهذه صفة أَهله ، لاعن العمل ؛ فليس هذا من نعته ! وكأَنى بك قد قلت : إن الفن ترف مستحدث ، أَما العمل فشقاء متقادم . هذا مما تعجله الإنسان وعاناه لقضاء حاجته ، وذاك مما تأنى فيه وصافاه للاستمتاع بلذته ، والإنسان إذا جوَّد العمل ، فمنتهى همه أَن يجعله على قضاء مآربه أَعون ، أَو يكون له فى أَسباب معيشته أَنجح وأَربح ، أَما الفن، فثمرة لغير شجرته ، يسقيها مُتَأَنِّقٌ من ينابيع ثرّة فى وجدانه ، ويُنْضِجها مشغوفٌ بلاعج من وجده وافتتانه ، فى غير مخافة مرهوبة ، ولامَنْفَعَة مجلوبة ، فذاك إذن بطبيعته مستهلك ممتهن ، وهذا لحُرْمَة نشأَته مذخور مكرم » (١) .

وهذا البيان الذى تَرَى ، لا أَحسبه جرى فى زماننا مع أَحد كما جرى مع هذا القلم ، ولا أَحسب هذه اللغة الشريفة كشفت

---

(١) القوس العذراء ص ٢٦

عن جوهرها الشريف لواحد من أهل زماننا كما كشفت عن جوهرها الشريف لهذا العالِم الجليل ، لما رأته حفياً بها أَنْبَل ما تكون الحفاوة ، وفياً لها أَكمل ما يكون الوفاء .

أَما جواب هذا السؤال فهو أَن وضع العمل هذا الموضع ، وربطه بالنفس الإنسانية على هذا النحو ، إنما هو أَمر كان يُعد فوق الإنسان عن تالد فطرته ، وانسلاخه من ركاز جبلته .

أَما الإنسان الذى يكون صقله للأَشياء وصبره على تخليصها وتقويم عوجها ، صبراً على تخليص جوهره هو ، وإزالة لما تراكم على نبعه فالعمل والفن عنده سواء لأَن كلاً منهما « لايُفْصَم عنه حين يُفْصِم ، إلا مطوياً على حشاشة من سر نفسه وحياته ، موسوماً بلوعة مُتَضَرِّمَةٍ ، على صَبْوة فَنِيَت فى عشرته ومعاناته » (١)

***

ورأس الأَمر عندنا فى هذه الرسالة أَنها رجعت هذه الأَفكار الحديثة جداً إلى صورة جرت فى شعر الشماخ ، وهو أَوصف

---

(١) القوس العذراء ص ٢٩

الشعراء لحمر الوحش حتى قال عنه الوليد بن عبد الملك ، وقد سمع شعره فيها « إنى لأحسب أحد أبويه كان حماراً » وذلك لمعرفته الدقيقة بطباعها ، وإبانة بيانه عن نوازعها ، وأهوائها ، وقد ذكروا فى خبره أيضاً أنه أرجز الشعراء على بديهة ، وأنه أوصفهم لقوس ، فموضوع العمل والفن ، واتفاقهما فى طبيعة ممارسة الإنسان لكل منهما ، وأن العمل « فى إرث طبيعته فن متمكن ، والإنسان بسليقة فطرته فنان معرق » يبدو بعيداً عن أفق شاعر هذا خبره .

وقد استخرج الأُستاذ شاكر صورة حية لأَفكاره هذه من أَبيات فى قصيدة الشماخ

عَفَا بطْنُ قَوٍّ من سُلَيْمَى فَعَالِزُ

فذاتُ الغَضَا فالمُشْرِفَاتُ النواشِزُ

وقد شبه الشاعر راحلته فى هذه القصيدة بحمار الوحش وذكر قصته مع أَتنه فى مَرْعَاه ، وفى مَطْلبه للماء ، وجرى لسان الشماخ مع حمار الوحش وأَتنه ، وهو يطلب لها مواقع الماء ، بعد ما طوى ظمئها فى بيضة القيظ (١) ، وقد أَحسن

(١) طوى ظمئها : زاد فى عطشها : وبيضة القيظ : شدة الحر :

وصف حالها ، وقلقها ، ومورانها ، وانْغَلَّ حتى رأى بعيونها ، واندس حتى أبان عن (راجفات الحذر)

ومن بين ماذكره من الصور صورة رام لايداوى رَمِيُّه مُتَنكِّبٌ قوساً ، أتقن القوَّاس صُنْعها ، وصَبرِ عليها حتى قضاها حق إحسانها ، وقد ذكر الشماخ قِصَّة القوَّاس مع القوس ، مبتدئاً من اختياره لفرعها الذى نَمىَ فى كن ساتر حماها العيون فأَخطأْتها ، وكيف عكف هذا الرجل على هذا الفرع فوضعه فى الشمس عامين حتى شرب ماءَ لحائه ، ثم أَقام عِوَجه، بالثِّقَاف ، والطَّرِيدَةِ ، حتى لاَنَ ، ثم أَعدَّ له وتراً كالشعاع حُرًّا « على أَربع قد فُتِل » ثم أَلْبسها حَبيراً يصونها من الندى . فلما وافى بها أَهل المواسم رآها بَيِّعٌ أَغلى لها السَّوْم فطلبها بإزار شرعيّ من أَجود الثياب ، وأَربع من السيرا أَى الثياب المخططة ، وأَواق من الذهب « ثمان من الكورى حُمر كأَنها الجمر » . « وبُردان من خال » ، « وتسعون درهماً » ...

ولكن هذا الثمن الربيح ، لم يدفع القوَّاس إلى إنجاز البيع لأَن هذه القوس بعض منه ، لم تنفصل عنه إلا بعد ما أَفنى

فيها ضراماً من نفسه ، وبعد ما صارت موسومة بلوعة متضرِّمة فَنِيَتْ فى عشرتها كما يقول الأستاذ .. ولهذا آمر نفسه :

« أيأتى الذى يُعطى بها أم يُجاوزُ » ... والناس من حوله قد أذهلهم هذا الثمن فقالوا له : بايع أَخاك .

فلما شراها فاضت العينُ عَبْرةً

وفى الصَّدْرِ حَزَّازٌ من الوَجْد حامزُ

ودونك هذه الأَبيات :

١ ـ فَحَلَّأَها عن ذى الأَراكة عامِرٌ

أخو الخُضْر، يَرْمِي حيثُ تُكوى النَّوَاحِزُ

٢ ـ قليل التلادِ ، غير قَوْسٍ وأسهمٍ

كأَنَّ الذى يرمى من الوحش ، تارزُ

٣ ـ مُطِلاًّ بزُرقٍ ما يُدَاوى رَمِيُّها

وصفراء من نَبْعٍ عليها الجلائزُ

---

(١) حلأها : منعها . ذو الأراكة : موضع ماء . الخضر : قبيلة منها عامر الرامى : النواحز : داء يصيب الحيوان فى رئته فيكوى فى جنبه فيشفى .

(٢) التلاد : المال القديم الموروث. التارز : الذى ييبس فى مكانه ومات .

(٣) الزرق : السهام شديدة البياض . النبع : شجر تتخذ منه القسى . الجلائز : عصب يلوى على القوس ليشدها .

٤ ـ تَخَيَّرها القوَّاسُ من فَرْعِ ضالةٍ
لها شَذَبٌ من دونها وحواجِزُ

٥ ـ نَمَتْ فى مكانٍ كَنَّها، فاستَوَتْ به
فما دونها من غِيلها مُتَلاحِزُ

٦ ـ فمازال يَنْجو كُلَّ رَطْبٍ ويابس
ويَنْغَلُّ .. حتّى نالها وهو بارزُ

٧ ـ فأَنْحَى عَلَيْها ذات حَدٍّ ، غُرابُها
عَدُوٌّ لأَوساط العِضاه مشَارزُ

٨ ـ فلما اطمأَنت فى يَدَيْه .. رأَى غِنىً
أَحاط به ، وازوَرَّ عَمَّنْ يُحاوزُ

---

(٤) الضال : شجر تتخذ منه السهام كالنبع : الشذب : الأغصان المتهدلة من الشجرة :

(٥) كنها : سترها فى كن : الغيل : للشجر الملتف : المتلاحز : المتضايق :

(٦) ينجو : يقطع : انغل : دخل فى شىء متلاحم على مشقة : بارز : ظاهر للشمس .

(٧) أنحى عليها : قصد وأقبل . غراب الفأس : حدها : العضاه : شجر عظيم ذو شوك : المشارز : الشرس :

(٨) ازور : مال وأعرض : يحاوز : يخالط :

٩ ـ فَمَظَّعَها عامين ماء لِحَائِها
ويَنْظُرُ منها : أَيَّهَا هــو غامِــزُ

١٠ ـ أَقَام الثِّقافُ والطَّرِيدَةُ دَرْأَها
كما قوَّمت ضِغْنَ الشَّمُوسِ المَهَامِزُ

١١ ـ وذَاقَ .. فأَعْطَتْهُ من اللِّين جانباً
كفَى ـ ولهاً أَن يُغرق السَّهْمَ حاجزُ

١٢ ـ إذا أَنْبضَ الرامون عَنْها، ترنَّمَت
تَرَنُّمَ ثَكْلى أَوْجَعَتْها الجنــــائزُ

---

(٩) مظعها : وضعها فى الشمس لتشرب ماء لحائها :. أى قشرها :

(١٠) الثقاف : خشبة فى طرفها خرق يتسع للقوس فتدخل فيها وتغمز حتى تسوى . والطريدة : قصبة مجوفة خشنة الجوف تدخل فيها القوس لتبرى قشرتها. الدرء : العوج . الشموس : القوس القصبية . المهامز : جمع مهماز تنخس به الدواب لتستقيم ، وتقويم ضغنها : تأديبها حتى يلين قيادها :

(١١) ذاق : جذبها ليختبرها : واغراق السهم : أن تستوفى جذبها فتلين فربما قطع السهم يد الرامى ، يقول : لها حاجز من القوة والصلابة يمنع لينها أن يبلغ بها الرامى إلى إغراق السهم .

(١٢) أنبض القوس : جذب وترها ، والجنائز : الموتى :

١٣ ـ هَتُوفٌ .. إذَا مَا خَالَط الظبْىَ سهمُها

وإنْ رِيعَ مِنْها أَسْلَمَتْه النَّوَاقــــزُ

١٤ ـ كأَن عليها زعفراناً تُميره

خوازنُ عطَّارٍ يمانٍ كوانِــــزُ

١٥ ـ إذا سقط الأَنداء، صِينَتْ وأُشْعِرَت

حبيراً ، ولم تُدْرَج عليها المعــاوِزُ

١٦ ـ فوافى بها أَهْلَ المواسم فانْبَرَى

لها بَيِّعٌ يُغلى بها السوَّمَ رائــــزُ

١٧ ـ فقال له : هل تَشْتَرِيها ؟! فإنَّهــا

تُباع بما بِيع التِّلاد الحَرائــــزُ

---

(١٣) هتوف : لها صوت : ريع : ذعر : والنواقز : القوائم :

(١٤) الزاعفران : طيب أصفر : تميره : تصب فيه الماء لتذيبه : الحوازن : النساء اللائى يخزن : والكوانز : اللائى يكنزن :

(١٥) الأنداء : جمع ندى . أشعرت : ألبست . الحبير : ثوب من الحرير الناعم : والمعاوز : الثياب الخلقة يلبسها المساكين : لم تدرج : لم تطو عليها :

(١٦) أهل المواسم : مجامع الناس فى زمن الحج : الرائز : المختبر :

(١٧) التلاد : المال القديم الموروث . الحرائز : التى تحرز ولاتباع لنفاستها :

١٨ـ فقال : إِزَارٌ شَرْعَبىٌّ ، وأَرْبَعٌ
من السيراءِ ، أو أَواقٍ نواجِزُ

١٩ـ ثمانٍ من الكورىّ ، حُمْرٌ كأَنَّها
من الجَمْرِ ما أَذْكَى على النارِ خابزُ

٢٠ـ وبُردانِ من خَالٍ وتسعون دِرْهماً
على ذاك مقروظٌ من الجلد ماعزُ

٢١ـ فَظَلَّ يُنَاجِي نفسَه وأَميرَها
أَيأتى الذى يُعطى بها أَم يُجاوِزُ

٢٢ـ فقالوا له : بَايِعْ أَخاك.. ولا يكن
لك اليومَ عن رِبْحٍ من البَيْع لاهِزُ

---

(١٨) الشرعبي : من أجود الثياب وأغلاها. والسيرا : ثياب مخططة نفيسة، والنواجز : حاضرة غير مؤجلة .

(١٩) الكورى : منسوب إلى كور الصائغ يعنى ذهباً مصوغاً .

(٢٠) الخال : موضع تصنع فيه الثياب النفيسة ، على ذاك : أى مع ذلك ، والمقروظ : المدبوغ بالقرظ ، والماعز : جلد الماعز وهو من أجودها .

(٢١) أميرها : الذى يؤامره ويشاوره . يجاوز : يتركه ويمضى .

(٢٢) اللاهز : المانع .

٢٣ ـ فلما شراها فاضَت العين عَبْرةً
وفى الصدر حزَّازٌ من الوَجد حامــزُ

الصورة هنا مثال واضح للأفكار التى ساقَها الأستاذ حول إتقان العمل ، وكان الشماخ ممن يُتْقِنُونَ صَنْعَةَ الشعر ويُفْنُون فيها ضِرَاماً من قلوبهم ، وهذا نفس من أنفاسه الصابرة .

ولم تُعد أبيات الشماخ هذه كغيرها من الشعر الذى لانرى فيه إلا وصف الفلاة ، وحيَّاتها ، وإنمَا هزَّتها عقلية حية ، فاستخرجت منها هذا الفكر الحَىَّ ، وكشفت منها عن هذا الجوهر النفيس ، وشمخ بها الشماخ على عظماء الشعر ممن استلهموا الهياكل المقدسة كما قال الأستاذ عادل الغضبان .

***

جعل الأستاذ شاكر هذه الأبيات موضوعاً لقصيدة رائعة فذة ، تعد من فرائدِ هذا العصر ، نشر فيها ماطواه الشماخ وأَضْمره ، وفصَّل وأَضافَ ، وأَكْملَ ، حتى صارت هذه القصيدة أحفل وأَشمل .

---

(٢٣) شراها : باعها . وحزاز : قاطع يحز حزاً شديداً : والوجد : أشد الحب ، حامز : ممض محرق :

« معانى المفردات مقتبسة من القوس العذراء »

وأبيات الشماخ ثلاثة وعشرون بيتاً ، والشعر الذى استخرجه الأستاذ منها مائتان وتسعون بيتاً ، منها سبعة وثلاثون كانت كالمقدمة . عرض فيها خبرَ عَامِرٍ أَخى الخُضْرُ . وحكاية القوّاس الذى ابتاع منه قوسه ، وتناول كل جزئية من الجزئيات التى جاءت فى كلام الشماخ بطريقة مُفصلة .

وقد بُنِيَت هذه القصيدة على أُسلوب الاستفهام الذى لايرمى بالمعانى فى النفوس ، وإنما يَحُثُّ على استخراجها ويثيرويشوِّق .

وكلمة الاستفهام التى جرت فى الأَبيات هى كلمة « كيف » التى تبعث الخواطر الداعية إلى معرفة الحال ، فى كل حدث تناولته جملتها ، وهى مناسبة لحديث اتقان العمل ، وطريقة تناوله والاستغراق فيه ، حتى يصير المعمول جزءاً من العامل ، وقد أَحاط هذا الاستفهام بكل ماعالج القوَّاس واعتمل له ، وكان الاستفهام مشوباً بالتعجب والاستعظام فعظم وقعه .

واقرأْ هذه الأَبيات :

« فدع الشَّماخ يُنْبئك عن قوَّاسها البائسِ فى حيث أَتاها :

أَين كانت فى ضمير الغَيْب من غِيلٍ نَمَاها ؟ (١)
كيف شَقَّت عينُه الحُجبَ إليها ،فاجْتَباها ؟
كيف ينغلُّ إليها فى حَشَا عِيصٍ وقاها ؟ (٢)
كيف أَنْحىَ نَحوْها مِبْراته ، حتى اختْلاها ؟ (٣)
كيف قرّت فى يَدَيْه ، واطمأَنَّت لِفَتاها ؟
كيف يَسْتَودِعُها الشمس عامين.. تراه ويراها ؟
كيف ذاق البُؤسَ..حتى شَرِبَت ماءَ لِحاها؟ » .

وهكذا استمرت القصيدة تتناول الأَحوال ، والمراحل ، إلى أن باعها .

« ورأى كَفَّيْه صِفْراً ، ورأى المال ... فتاها
لمحةً .. ، ثم تجلَّى الشك عنه ... فبكاها !
ورثاها بدموعٍ ، وَيْحَهُ ! كيف رثاها
فَتَولىّ .. وسَعيرُ النار يُخْفِي ولظاها
حَسْرَةٌ تُطْوَى على أُخرى ، فأَغضى .. وطواها » .

---

(١) الغيل : الشجر الكثير الملتف . ونماها : نسبها .
(٢) العيص : الشجر النابت بعضه فى أصول بعض .
(٣) مبراته : فأسه ، واختلاها : قطعها .

وهذه الأَبيات لم تتجاوز خبر عامر وإنما وضّحته وأَعادت صياغته على الحد الذى تراه فيها .

أَما ماأَثارته أَبيات الشماخ من صور ومعان فقد جاء ذلك فى القصيدة الأُم .

وقد نبه الأستاذ إلى ذلك الفرق الدقيق بين هذه القصيدة التى قلنا إنها كمقدمة ، والقصيدة الأَصلية التى هى « القوس العذراء » .

فقال فى الأولى بعد ما أَوجز خبر عامر فى كلام جامع متقن قال فيه « هذا عامر أَخو الخُضر ، تَوجَّست به الوحش من عرفانها شِدَّة نِقْمته ، جاءت ظامئةً فى بَيْضَةِ الصيف ، فَراعَها مَجْثَمهُ فى قُترته ، قليلُ التلاد ، غير قوس وأَسهم ، خفىّ المِهاد ، غيرْ مُقْلَةٍ تتضرَّم . تَبَيَّنَتْ لَمْحَ عَيْنَيْه ، فانقلبت عن شريعة الماء هاربة ، ذكرت نكاية مرماه فآثرت ميتة الظمأ على فتكة الأسهم الصائبة » (١) .

أَقول : قال بعد هذا الكلام الذى يبعث به أَنغام سليقته العربية الخالصة الشريفة ، والذى لا يصفه لك أَحد وصف

---

(١) القوس العذراء ص ٣٠

نفسك له إذا أَحكمت مراجعته ، وأَطلت التوسم فيه ، قال : « وما عامر وخبره » ثم بدأَ الأَبيات .

وقال بعد فراغه من هذه الأَبيات « فاسمع إذن صدى صوت الشماخ » فأَبان هذا مع النظر فى القصيدتين أَن الأُولى تروى خبراً ، والثانية تروى صدى أَبيات الشماخ ، وما أَثارته من معان وصور ، وأَنغام ، وأَحداث .

وقد قسَّم الأَستاذ محمود شاكر أَبيات الشماخ الثلاثة والعشرين إلى ثمانية أَجزاء تمثل ثمانية مواقف ، أَتبع كل قسم منها بجملة أَبيات من قصيدته تمثل صدى هذا الموقف .

فى القسم الأَول : وصف الشماخُ عامِرَ الرَّامِى فى ثلاثة أَبيات « فحلَّأَها عن ذى الأَراكة عامر» ، والبيتين بعده ،

وكان صدى هذه الأَبيات الثلاثة : عشرة أَبيات

والقسم الثانى : يشمل الأَبيات التى تصف اختيار القوَّاس لغصنها ، واعتماله فى الوصول إلى هذا الغُصْنِ ، وعدد أَبياته خمسة أَبيات . وجاءَ صداه فى سبعة عشر بيتاً .

والقسم الثالث : ذكر بيتين فقط للشماخ ، يصفان ثِقافَهُ لهذا الغصن ، والأَبيات التى هى صدى هذين البيتين عددها ستة عشر بيتاً ..

والقسم الرابع : ثلاثة أَبيات صار فيها الغصن قوساً يرمى به الرامى ، فلا يُخْطِىءُ رميّه ، وعدد أَبياته ثلاثة أبيات، وصداها عشرون بيتاً .

والقسم الخامس : بيتان يصفان عناية القوَّاس بالقوس ومحافظته عليها ، وجاءَ صداهما فى ثمانية أَبيات .

والقسم السادس : خمسة أَبيات تصف رحلة القوَّاس بقوسه إلى موسم الحج ، ورؤية البيِّع الذى أَغلى لها السوم وجاءَ صداه فى ثلاثة وستين بيتاً .

والقسم السابع : بيتان يصفان تردد القوَّاس فى البيع مع أَن الثمن ربيح ، وموقف أَهل الموسم منه ، وحثهم إياه على البيع ، وقد جاءَ صداه فى ست و ثلاثين بيتاً .

والقسم الثامن : بيت واحد ، يصف ماوجده القوَّاس بعد بيعه وقد جاءَ صداه فى خمسة وسبعين بيتاً .

وهذا التقسيم وما يقابله يوضح المعانى والأَحوال التى مدَّت فيها القصيدة نفس الشعر ، وأَرخت عنانه .

وواضح أَن البيت الأَخير الذى هو :

فلما شراها فاضت العين عَبرةً
وفى النفس حزَّازٌ من الوَجدِ حامزُ

أَثار ما لم يثره غيره من أَصداء ، وأَنغام ، وأَحوال ، وهو يمثل الموضوع لأَنه وصف لواعج القوَّاس بعد ما باع قوسه بثمن لا يُباع مثلها بمثله .

وقد استفتحت هذه القصيدة بثلاثة أَبيات جاءت فى وصف الشعر الجاهلى ، وإن كانت فى سياق الكلام عن شعر الشماخ ، وهى أَبيات حسنة جداً ، وفيها إماءة إلى ما يتميز به من بين أَشعار الناس كافة ، من حيث هو أَقدم شعر يُقرأ الآن بلفظه ونظمه ، ونغمه الذى وجد عليه منذ أَكثر من خمسة عشر قرناً ، ثم هو مع ذلك لا يشتبه علينا شئ فيه ، ويحفظه المبتدئون ولا يجدون منه نفرة ، بل إن أَوزانه ، وأَنغامه لتعينهم على حفظه .

قال : «تجاوب عنه كهُوُف القرونِ، ترددَّ فيها كأَنْ لَمْ يَزلْ
وأَوْفَى على القِمَمِ الشامِخاتِ : جبالٌ من الشعر منها استهلْ
تحدَّرَ أَنغامُه المرسلاتُ ، أَنْغَامَ سَيْل طغى واحْتَفل » .

وأُنَبِّهُ هنا إلى شيء لايحتاج إدراكه إلى فضل نظر، وهو خلل ترتيب أَبيات قوس الشماخ فى نشرة ديوانه التى بين أَيدينا فقد جاءَ قوله « فوافى بها أَهل المواسم » وما بعده إلى قوله « وفى الصدر حزَّازٌ من الوجد حامز » بعد قوله « أَقام الثِّقافُ والطريدةُ درأَها » ثم جاءَ قوله « وذاق فأَعطته من اللين جانباً » والأَبيات الأَربعة التى تليه ، بعد قوله « وفى الصدر حزَّازٌ من الوجد حامز » وهى موصولة بتقيف القوس وإعدادها الذى كان قبل موافاة أَهل المواسم بها ، وهذا واضح .

والبيت الأَخير من أَبيات الشماخ

فلما شراها فاضت العين عَبرةً
وفى الصدر حزَّازٌ من الوجد حامزُ

علقت عليه القصيدة خمسة وسبعين بيتاً كما قدمنا ، وترى فيها كيف مدَّ الشعر المعانى ونمَّاها ، وكيف حلَّل الخواطر

وفصَّلها ؟ وبسط الصُّورَ وآثراها ؟ والأَهم من ذلك كله كيف جعل الـكاتبُ قلبه نبعاً لها ؟ وكيف تولدت فى نفسه واتَّسَعَت ؟ وكَيف أَحسَّ لوعة القوَّاس إحساساً جعل كلماته تتقد بلوعته ،

اقرأ هذه الأَبيات :

« وفاضت دموعٌ كمثل الحميم ، لذَّاعةٌ نَارُها تستهِلّ
بُكاءٌ من الجَمْرِ جَمْرِ القلوب ، أَرْسَلَها لاعجٌ من خَبَلْ
وغامَتْ بعَيْنَيْه ، واستَنْزَفت دم القلب يَهْطِلُ فيما هطَلْ
وخانِقَةٌ ذبحت صَوْتَه ، وهيض اللسانُ لها واعتُقلْ »

وقد تتابعت الأَبيات تشرح ما فى صدر القوَّاس من حزَّاز من الوجد حامز ، فوصفته وهو مُغض مطرق ، أَثقلته هموم أَذهلته ، وأَعادت إليه صورة لحظة الأَسى الذى كربه ، وهى لحظة البيع بغمغماتها ، وتزاحمها ، واضطرابها ، وقد صَوَّرت الأَبيات هذا الموقف تصويراً حيًّا حافلا ، وهو فى كلام الشماخ إيماءة أَشار إليها بقوله :

فقالوا له : بايع أَخاك ولا يكن
لك اليوم عن ربح من البيع لاهزُ

وقد استمدت « القوس العذراء » من هذا البيت خيوطاً كثيرة نسجت مواقف متكاملة ، صور الشعر فيها خواطر الحيرة والمنازعة ، والتردد تصويراً حافلا بليغاً .

ولنسمع كيف صوَّر الشعر لحظة ذهول القوَّاس ، وتواثب همومه التى أَغارت عليه ، وأَعادت إلى نفسه الصور مرة ثانية :

« وأَغضى على ذِلَّةٍ مُطْرِقاً ، عليه من الهمِّ مثل الجبل

أَقام .. وما إن به من حراك، تخاذَلُ أَعضاؤه كالأَشل (١)

وفى أُذنيه ضَجيجُ الزِّحَام ، و « بع باع ، بع باع ، بع يارجل » !

وأَخْلدَ من حَيْث طار السُّوام بمهجته ، كَأُرُومٍ مَثَل »(٢)

ثم تعود الصورة إليه بضجيجها ، وزحامها :

«ومن حوله الناس مثل الدَّبى عجالا تنزىَّ ، دَهَاهُنَّ طَلّ

---

(١) الأشل : الذى أصيب بالشلل .

(٢) السوام : المساومة فى البيع : والأروم : أصل الشجرة إذا ماتت . ومثل : نصب وقام .

فمن قائل : فاز .. ردَّت عليه قائلة : ليته ما فعل !

ومن هامسٍ : ويحه مادهاه !ومن منكرٍ : كيف يبكى الرجل»

وهكذا يتابع وصف هذه الأَحوال إلى أَن تَنْسَالُ هذه الجموع وتموت أَصواتها ، فى أَبيات حافلة جداً بصور واضحة ، ومشاهد كاملة ، تسمع فيها الجهر ، والهمس ، والغمغمة ، وترى فيها الحركة الواضحة ، والغمزة الساخرة ، والنَّغْضَة المستخفة.

ولما أَفاق رأَى الجموع ذاهبة فانكشفت الصحراء من ورائهم فرأَى أَغربتها ، وحيَّاتها ، وضباعها ، وضبابها ، وصوَّرت القصيدة ذلك ، فى صورة لاتنقصها شية من الشيات التى تجدها عند شعرائنا الأَوائل الذين برعوا فى وصف المفاوز .

ولتقرأ هذه الأَبيات :

«رأَى الأَرْضَ تَمْشى بهم كالخيال،أَشباحُهم خُشُبٌ تنتقل

وهامٌ مُحلَّقَةٌ رُجَّفٌ ، وأُخرى بَدَتْ كَنزيع البصل(١)

وأَغربة : بعضُها جاثم يحرك رأْساً ، وبعض حَجَلْ

(١) الهام : الرؤوس ، الرجف : جمع راجف وهى التى ترتجف وتضطرب ، ونزيع البصل : منزوعه .

وحيَاتُ وادٍ ، لِشَمسِ الضُحَىُ تُلَوِّى حيازيمها والقُلَلْ (١)
وأَزفلَةٌ من ضباع الفلاة تخمع من حول قتلى هَمَل (٢)
وهنا وهنا ضِبابٌ مَرَقْن من كُلِّ جُحْرٍ كَسَيْلٍ حَفَلْ »

تأَمل تصوير الأَغربة الجاثم منها وما حجل ، وتصوير الحيات التى تلوِّى حيازيمها ، وجماعات الضباع تعرج حول القتلى المهملين ، وحَركة الضِباب المارقة هنا ، وهناك ، وسط السيل المنهمر .

وقد وصفت الأَبيات بعد ذلك حال القوَّاس ، وهو يفيق من ذهوله وَصْفاً تغلغل بين همومه المتثاقلة ، ولامس نفسه ، وهو فى حضيض مهواة سحيقة المدى تدب إليه الإفاقة فى تثاقل شديدٍ .

وظل الشعر فى هذا الموقف يحلل ويُفَصِّلُ ، ويُلمُّ بكل هاجسة وسانِحَةٍ ، حتى انتهى بهذا القوَّاس إلى اللحظة التى لمح فيها فَرْعاً صالحاً ، من شجر الضال ، يمكن أَن يُبْدع منه بيديه

(١) الحيازيم جمع حيزوم وهو ما اكتنفت الحلقوم ، والقلل : الرؤوس.
(٢) الأزفلة الجماعة تأتى مسرعة ، وتخمع : تعرج .

اللتين حَبَاهُ بهما فاطرُ النيرَّاتِ قَوْساً ثانية كهذه، وبذلك فُرِّج كربه :

« وشَقَّت له السُّدَفَ الغاشيات حَسْناءُ ضالٍ عليها الحُلَل

« أَضاءَ الظلامُ لها بَغْتَةً ، وقوَّض خيمته وارتحلْ

أَطَلَّت له من خلال الغصونِ عذراءُ مكنونةٌ لم تُنَلْ »

***

لم يستلهم الأستاذ شاكر أَبيات الشماخ ودقائقُها وهى تائهةٌ منه ، مكتفياً بفحواها العام ، وإنما كانت له معها مسالك مدروسة ومداخل تصل إلى الرحاب الفسيحة .

من ذلك أَن الشماخ ذكر أَن هذه القوس لما أَتمَّ القوَّاس صنعها صينت ، وأُشْعِرت حَبيراً أَى أُدرجت فى ثياب الحرير ، ثم ذكر الشماخ بعد ذلك رحلة القوَّاس بها إلى أَهل المواسم ، وتَنْفُذ القوس العذراء فتكشف المسافة التى طواها الشماخ بين إتمام صنع القوس ، والرحلة بها إلى مواسم الحج ، فينشر منها صفحة رائعةً ، عاشها القوَّاس ، وهو متنكب قوسه ، يراها على بؤسه جَنَّةً ، ويصاحبها فى هجير القِفَار ، ويجوب بها

أهوال أرض آبائه ، يُحَدِّثُها عن أيامهم ، ودُوَلَهم التى قامت على هذه الأرض وهو مُنْتَشٍ نشوة مشوبة بالأسى ، وبالثقة والأمل ، والحكمة .

وهذا الجزء من أروع روائع هذه القصيدة .

ولحديث الأستاذ شاكر رنة خاصة ، ذات دلالات عميقة حين يتكلم عن أمته ، وحضارتها ، وتاريخها ، وله معرفة متميزة بهذا التاريخ ، وله تصوره الخاص المتفرد لأحوال هذه الأمة بهداها ، وضلالها ، وعدلها ، وبَغْيها .

ولتقرأ هذه الأبيات التى نشرت ما طواه الشماخ :

« فيحرُسها وهو فى أمْنَةٍ ، وتحرُسُه فى غَواشى الوَجَلْ
يجوب الوهادَ ، ويَعْلُو النجادَ ، ويأْوِى الكهوفَ ، ويَرْقَى القُلَل
ويُفْضِى إلى مُسْتَقَرِّ الحتوفِ : فى دار نمرٍ ، وذئبٍ ، وصِلْ
منازل عادٍ ، وأشْقَى ثمودَ ، وحِمْيرَ ، والبائداتُ الأُوَلْ
مجاهل ما إن بها من أنيس ، ولا رسمِ دارٍ يُرَى أو طَلَلْ
يُعلِّمها كيف كان الزمان ، ومجدُ القديم ، وكيف انْتَقَلْ

وكيف تساقى بها الأَولونَ رحيقَ الحياة وخَمْرَ الأَمَلْ

وأَين الأَخِلاَّءُ كانوا بها يجُرّون ذيل الهوى والغزلْ

ومَلكٌ تعالى ، وطاغٍ عتا ، وحُرٌّ أَبىَ ، وحريصٌ غَفَلْ »

انظر إلى تصوير ما رأَته عينه فى الخرائب والمجاهل وهو فى حال النشوة ، والشعور بالقوة ، والجسارة ، رأَى مجداً ، وعزاً ، وتاريخاً ، ولما باعها ، وأَطبق عليه الهم رأَى فى هذه الخرائب أَغربة بعضها جاثم ، وبعض حجل ، وحيات تُلوٍّ حيازيمها ، وكانت الصحراء هناك مشهداً يتزاحم بالأَهوال ، وهى هنا صفحة من تاريخ مجيد .

وللأُستاذ شاكر قدرة عجيبة على تركيز المعانى فى أَلفاظ قلائل حتى لترى الكلمة الواحدة ، ترمى بفيض من المعانى ، والصور ، والأَحداث ، والأَحوال :

تـأَمل قوله :

ومَلكٌ تعالى ، وطاغٍ عتا ، وحُرٌّ أَبىَ ، وحريصٌ غفل»

ولله هذا الحر الذى أَبى .

***

ويتميز أسلوب الأستاذ شاكر بالعروبة التَّقية ، المُتْقنة المصقولة ، ترى فى كلماته أَنَفَةَ ، وعِزَّةً ، وشموخاً ، وتراها تجرى فى بيانه وهى حفية به ، لأَنه أَجراها على سليقتها ، واستخرج منها زهوها ، وبهاءَها ، وشرف بيانها ، وجلال نغمتها ، وحكمة دلالتها .

وقد ذكر أَبو حيان أَن الكلام صلف تيَّاه ، وأَن له زهواً كزهو الملوك ، وخَفْقاً كخفق البرق (١)

ولاريب أَن هذا الصلف ، وهذا الزهو، وهذا الخفق ، لايستخرجه من الكلام كل من يَرُومه . وإنما يستخرجه من كان بين أَهل البيان أَشبه بالملوك بين الناس .

وصقل اللغة ، وبهاؤها يرى فى لغة الأَستاذ شاكر نابعاً من المعنى ، إذ لاطريق إلى الإبانة عن هذا المعنى ، إلا بهذه اللغة ، وبهذا التقسيم ، وبهذا الإيقاع ، ومرجع ذلك إلى صقل المعانى ، والأَفكار وتهذيبها ،وتحديدها ، ثم انبعاثها فى نغمها ،وتقسيمها ، وتعليق بعضها على بعض ، على وجه خاص من وجوه التعليق .

---

(١) ينظر الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ٩

فليست هناك مراجعة للألفاظ ، وإنما هناك مراجعة للمعانى ، وتعرف على دقائق شياتها ، ثم الوفاء بها فى الإبانة عنها ، وهذا هو الفرق بين فنون صَنْعَةِ الكلام حين تراها فى الأَساليب المطبوعة كأسلوب الأُستاذ شاكر ، وحين تراها فى كلام المتكلفين ، انظر إلى قوله ، وهو يصف الإنسان بعد ما حاد عن النهج الذى لايختل ، والهدى الذى لايتبدل .

« فعندئذ حَاكَ الشكُّ فى صدر اللاحق ، حتى قدح فى تمام صُنع السابق ، فاستدرك عليه ، وقلق الوارثُ ، حتى خاف تقصيرَ الذاهبِ ، فاسْتَنْكَفَ الإذعانَ إليه ، فكذلك جاشت نفسه ، حتى اندفقت صُبَابة منها فيما يعمل ، وتضرّم قلبه ، حتى ترك ميسمه فيما أَنشأ ، فتدلَّه بصنع يديه ، لأَنه استودعه طائفةً من نفسه ، وفُتِنَ بما اسْتجَادَ منه ، لأَنه أَفنى فيه ضِراماً من قلبه ، وإذا هو يَسْتَخِفُّهُ الزهو بما حاز منه وملك ، ويُضْنيه الأَسى عليه إذا ضاع أَو هلك »(١) انظر كيف أَوقع « حتى » و « الفاء » و « الواو » وعلق المعانى بعضها على بعض ، وأَجرى نسيج الكلام على وجه دقيق .

---

(١) القوس العذراء ص ٢٤

و «حتى» هنا للغاية فهى تشير إلى أن ما بعدها نهاية ما قبلها، ثم تأتى الفاء مشيرة إلى أن ما بعدها مسبب عما قبلها ، ثم يُعَادُ هذا النسق ، بهذا الربط ، وهذا التعليق فى الجملة الثالثة « وقلِقَ الوارث ... » ثم تكون الواو الداخلة على جملة « قلق الوارث » عاطفة لجملة من الجمل التى تعلقت بها على جملة الجمل التى سبقتها ، والتى نسقت من داخلها نسقاً كنسقها ، وتأتى الفاء فى قوله « فكذلك جاشت نفسه » للإشارة إلى أن هذا المعنى الذى هو جيشان النفس وما بعده ، إنما يأتى مرتباً على ما قبله الذى أساسه جملة « حاك الشك فى صدر اللاحق» لأنها هى الأصل الذى ارتبط به كل ما بعده ، ثم تجد لام التعليل فى قوله « لأنه استودعه » تتكرر وتتوازن فى قوله « لأنه أفنى » ثم تجد تناغى الأصوات فى القاف فى قوله « تمام صنع السابق » مع قوله قبله « حاك الشك فى صدر اللاحق » وتتحدَّر المعانى إلى قرارها مع كل فاصلة ، عند كلمة « إليه » ، و « يديه » .

وهكذا كلما أمعنت وجدت ضروباً من صنعة البيان الشريفة تزهو به عروبة اللسان ، ويتهادى نغمه الجليل .

واقرأ قوله فى الإنسان:

« ابتُلى من يومئذٍ فتمرَّس ، وأُسْلِمَ لمشيئته فتحيَّر ، جار وعدل ، فعرف وجرّب ، أَخطأَ وأَصاب ، ففكر وتدبّر ، نزع إلى النهج الأَول ، فأَخفق وأَدرك ، تاق إلى الهَدى القديم ، فأُعطى وحُرم ، احتفر ذخائر الفطرة ، فأَكدت عليه تارة ونبعت ، التمس شوارد الاتقان ، فندّت عليه مرَّة واستقادت »(١)

انظر إلى هذه الفاءَات ، وكيف ربطت أَوائل المعانى بأَواخرها . ربط مسبب بسبب ، ثم كيف تعادل هذا مع تلك المطابقات التى تتجلى بها الحقائق ، وتتميّز ، وتتحدَّد ، وتتسع أَيضاً ، ثم كيف توازن هذا مع الاستئناف الذى بنيت عليه أَكثر الجمل ، فأَفاد المعانى ضرباً زائداً من الاستقلال ، والتميّز ، والاحتفال . وصارت كل جملة تمثل حقيقة قائمة بنفسها ، يؤتنف لها الكلام ائتنافاً ، ثم كيف تقاربت الجمل فى عدد الكلمات ، فأَحدث ذلك ضرباً من التزاوج ثم التشابه .

والإصابة فى مواقع حروف المعانى على الحد الذى رأَيناه يكون كما قلنا من النظر فى تخليص المعانى ، وتحديدها ،

---

(١) القوس العذراء ص ٢٤

وتعليق بعضها على بعض ، وهو عند أهل العلم ضرب من تثقيف الكلام أشبه بطرائق أهل الطبع ، ثم هو عندهم فوق تخليص المجازات والمطابقات ، وفنون البديع ، لأَن هذه وإن كانت دالة على التمكن ، وقوة النحيزة ، إلا أَن تصاريف حروف المعانى أَغمض مسلكاً وأَلطف موقعاً .

***

قلت :« إن القوس العذراء » منهج وطريق فى خلق حياة فكرية ثريَّةٍ وخصبة ، تقوم على ما بين أَيدينا من تراث ، وليس على الاقتباس الذى أَبْطل عقولنا فى كل فرع من فروع المعرفة ، حيث اتكأْنا على ما كافحت فى استخراجه عقول الآخرين .

وصار محصول ما بين أَيدينا كما وصفه الأُستاذ محمود شاكر :

« ترديداً لقضايا غريبة ، صاغها غرباء ، صياغة مطابقة لمناهجهم ، ومنابتهم ، ونظراتهم ، فى كل قضية ، واختلط الحابل بالنابل .. قل ذلك فى الأَدب والفلسفة ، والتاريخ ، والفن ، أَو ما شئت ، فإنه صادق صدقاً لايتخلف ، فالأَديب مصور

بقلم غيره ، والفيلسوف مفكر بعقل سواه ، والمؤرخ ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنان نابض قلبه بنبض أجنبي عن تراث فنه » (١)

وهذا هو الذى جاهد الأستاذ شاكر ويجاهد فى مطاردته ، لتثبيت الاتجاه الصحيح ، وغرس القيم الفكرية الصحيحة فى حياتنا العلمية .

« القوس العذراء» فكر ، وأدب حىّ جديد ، وضع الشماخ نبتته ورواها شاكر بفيض من حسه وفكره ، فأزهرت وأورقت وغنيت ، وصارت فى رياض المعرفة شجرة طيبة ، أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين .

وهذا ما يجب أن يكون فى فروع المعرفة كلها ، وليس فى الأدب فحسب ، يجب أن نقرأ كل باب من أبواب العلم الذى كتبه علماؤنا ، قراءة كقراءة الأستاذ شاكر قوس الشماخ ، ويجب أن نستخرج من كل باب ما استخرجه

---

(١) مجلة الثقافة العدد ٦٠ مقال « المتنبي .. ليتنى ماعرفته » ص ١٦

الأستاذ شاكر من قوس الشماخ ، وعندئذ سوف يكون بين أيدينا علم حافل هو علمنا ، وخلق عقولنا ، وقلوبنا .

وهذا لايتأتى إلا حين تلامس قلوبنا وعقولنا أصول هذه العلوم ، وفروعها ، ونفتش فى مسائل العلم مسألة مسألة ، ونقف عند كل فكرة ، وكل كلمة ، ونديرذلك فى أفئدتنا ، مرات ، ومرات ، حتى تعود قلوبنا منابت صالحة لهذه العلوم ، وكأنها تنبت فيها مرة ثانية ، نحس كل فكرة فيها ، وكل حقيقة ، ونصبر على ذلك حتى تولد الولائد فى نفوسنا ، فنستخرج من الفكرة فكرة ، ومن الحقيقة القديمة حقيقة جديدة ، هى أوسع منها ، وأبعد ، وأعمق ، ولكنها منها ، كما أن « القوس العذراء » ، من قوس الشماخ .

والعقول الكبيرة التى عانت البحث عن الحقيقة حين تأسست العلوم تجد دائماً فى كلامها غمغمة بحقيقة بعيدة وراء الحقيقة الظاهرة ، المدلول عليها فى كلامهم دلالة مباشرة ، والخطأ هو الاكتفاء بهذه الحقائق الجهيرة ، وإغفال تلك الحقائق المتوارية ، والتى وجدوا لها فى عقولهم وميضاً ، فأومضت

بها عباراتهم إيماضاً على حد ما وجدوها فى نفوسهم ، وهذا شىء لاتخطئه العين التى طالت ممارستها لمثل كلام سيبويه ، والفارسى ، وابن جنى ، وعبدالقاهر وغيرهم من الذين تجد ألفاظهم مكتنزة تنبض بكثير من الحقائق .

ويشير الأستاذ شاكر إلى هذه الحقيقة فيذكر أن سعة الألفاظ واختزانها ليس فى الشعر فحسب ، وإنما يجرى ذلك فى كل ما تتناوله اللغة (١)

وترى حيثما قرأت للأستاذ شاكر بين يديك غرائب من الفكر ودقائق من النظر ، ثم ما يلبث أن ينطق لك بها شاعراً من شعرائنا أو عالماً من علمائنا ، وحينئذ تجد لهؤلاء العلماء والشعراء الذين يذكرون فى كتبه ، شيئاً آخر غير الذى تجده لهم حين يساق كلامهم وهو مقهور ذليل يرسف فى أغلال الجهل والسطحية موسوم بفقدان المنهجية ، والتخلف ، فيه بلادة وغفلة ، فلم يفطن إلى كذا ولا كذا ، مما تجده مطروحاً بين يديك فى أكثر الذى تقرؤه ، سواء فى ذلك كتب الكبار ، أو كتب الصغار الذين يريدون أن يكونوا كباراً .

---

(١) ينظر أباطيل وأسمار ج ١ ص ٢٥

لاريب أَن موقفنا من خلق حركة فكرية صحيحة موقف ليس صحيحاً ، وأَصل ذلك موقفنا من تراثنا ، لأَن قصارانا أَن نقول فيه ، إن مراد القائل هو كذا ، ونقف من أَفكار علمائنا موقف التلميذ من الدروس التى يجب أَن يفهمها ، وليس موقف الأُستاذ الذى يتدسس بعقله ، وفطنته ، وثقافته ، وأستاذيته ، فى بطون الحقائق ليستخرج منها ما أَجنَّت وما أَكنت ، وأَن يَمدَّ ذلك ويبسطه فيصبح بين يديه حقيقة ذات أَبعاد .

نقول مثلا : إن الشماخ أَراد أَن الحُمُر قصدت ذا الأَراكة فمنعها عنها صائد درب ، هو عامر أَخو الخُضر ، وأَنه محترف للصَّيْد ، لامَنْجاة من رميته ، وأَن له أَسهماً نافذة ، وقوساً جيدة ، وهكذا نستمر فى بيان ما أَبان عنه الشماخ ، ونكتفى بذلك أَو نأخذ بشىء من المعاصرة ، فنقول : إن هذه الأَبيات لوحة جيدة من لوحات الصحراء ، فيها اللون ، والحركة ، والظلال ، وقد وزّع الشاعر كل ذلك ببراعة ، وكأنك ترى فى يديه ريشة فنان بارع يغمس ريشته فى وجدانه ، فيستخرج أَغمض الأَلوان وأَدق المشاعر ، وهكذا نستمر فى

كلام كهذا الكلام متجهين إلى جهة واحدة ، هى أن نقول فى شعرائنا مثل ما يقوله الناس فى شعرائهم على الحد الذى نتصوره ، ونحن حين نفعل ذلك نعتقد أننا أفرغنا أبيات الشماخ من كل ما فيها فى تحليلنا هذا بل وأنصفنا الرجل لأننا وضعنا فى يديه ريشة الفنان البارع ، وجعلنا أبياته لوحة .

ولا تجدنا نُدير عيوننا فى أبيات الشماخ لنلتقط هذا الشعاع الذى التقطه الأستاذ شاكر ، وهو هذه الرابطة الحميمة بين الصانع وما صنع ، والتى كانت نَبْتَةً روّاها قَلم الأستاذ شاكر فأَزهرت « القوس العذراء ».

وكذلك يقال فى قراءتنا للتراث كله ، نعتقد أَننا حين نبين مراد القائل ، نكون قد وصلنا إلى قراره ، وأَفرغناه من كل ما فيه فإذا أَردنا أَن نكون من ذوى المناهج العلمية ، قلنا : إن هذه الفكرة فى كلامه أَصلها عند فلان وأنه أَخذها ، ولم ينتبه ، وأَنه حين يقول « قال بعضهم » إنما يريد فلاناً ، إلى آخر ما تجدنا نهتم به ، ثم نعتقد أَننا لم ندع من الأَمر شيئاً إلا

كشفناه ولهذا شاع القول بأن التراث قا دُرس ، وأن فلاناً من المحدثين كتب عن فلان من القدماء ، وهذا كله قاصر جداً في ضوء ما بَيَّناه من الطريقة الواجبة في قراءة التراث على هدى ما رأيناه في « القوس العذراء » .

وهناك أسلوب شائع في تناول التراث يَصْطَنِعه كثير من أهل العلم ، وهو أن نطالع ما عند الناس ثم نعود إلى تراثنا نتلمس ما يمكن أن يكون شبيهاً بهذه الأفكار ، سواء أكان الشبه مقارباً ، أو مما نَتَأَتَّى له بشيء من الحيلة والمسامحة .

والمحصلة أن نقول : إن عبد القاهر مثلا سبق المحدثين في القول بكذا ، وأن سيبويه فطن إلى النظرية الفلانية . وهذا الطريق وإن كان يرضى زهونا التاريخي ، وخاصة بعد ما ألحَّ على عقولنا القول بفساد تراثنا ، حتى استيأسنا ، وظننا أننا قد كُذِبْنَا حين اعتقدنا أننا أبناء أُمة عريقة .

أقول هذا المنهج ، وإن كان يُرضى غرورنا فليس لنتائجه قيمة علمية ، لأن العلم لايتقدم بهذا قيد أنملة ، وإنما علينا فقط أن ننتظر حتى يقول الذين يتكئون على عقولهم كلاماً جديداً ،

فى شأن من شئون الفكر والأَدب ثم نخرج من الذى عندنا شيئاً يشبهه ، وكأَننا نقول بلسان الحال: إذا كنا عاجزين عن أَن نقول مثل ما تقولون ، فقد قال آباؤنا مثله ، وأَن فكركم هذا الذى استبد بالعصر مهما جد فلن يقع إلا بعيداً عن أَعقاب آبائنا .

ثم إن ثمة شيئاً آخر يحدث فى هذا الباب هو أَن الأَفكار التى نقول « عندنا مثلها» سرعان ماينْبِذُها أَصحابها، ويتجاوزونها، ويأتون بشىء جديد ، وهم فى هذا ماضون على طريقهم من الجد ، والاتكاء على عقولهم ، وعلينا إذن أَن نُخرج هذا الشىء الثانى من تراثنا .

وقد استهلكت هذه الطريقة جهوداً كثيرة من كتابنا .

انظر إلى محاولات استخراج التجربة الشعرية ، والوحدة العضوية ، وأَخيراً البنيوية والأسلوبية ، وقلَّ أَن تجد كاتباً فى الأَدب ونقده لم يحاول أَن يتلمس أَشباهاً لهذا الفكر فى تراثنا .

والصواب هو أن نستخرج من تراثنا ما تهدينا إليه عقولنا، وافق الذى عند غيرنا أم لم يوافق، المهم أن يوافق صريح عقولنا، وأن نرضاه ونستحسنه نحن ، بعيوننا ، وعقولنا ، وأن نجد فيه كفاء لحاجتنا الفكرية والأدبية ، وهذا مطلب عزيز ، وإنما يُنال بالصبر والمجاهدة .

وقد تبقى الفكرة فى الكتب صامتة خرساء وتبقى على ذلك دهوراً حتى تلامس عقلا حيًّا صادقاً يحمل بين جنبيه هذه الهموم الشريفة ، فيستخرج منها أزكى ما يستخرج وأنبله .

***

وهذا النهج الذى خطَّته « القوس العذراء » إحياء وبعث لطرائق الكملة من أهل العلم فى تاريخ علومنا ، ولاريب فى أن لدينا تجارب غنية فى إبداع المعرفة ، وإنشاء العلوم ، يمكن أن نصطنع مسالكها كما اصطنعتها « القوس العذراء » بحدس حضارى نادر .

علينا أن نعود إلى كلام الكبار من العلماء الأوائل ، وأن نُطيل النظر فيه غير مستهدفين استيعابه فقط لأن الاستيعاب

وحده لايقدِّم ولا يؤخر فيما نحن فيه وإنما لنستخرج خَبْأَه ، ونبعث الفكرة من وراء الفكرة ، ونستل الخيوط المضمرة من غيبها ، ونمدها لننسج كلاماً آخر هو منها ، ولكنه غيرها .

وهكذا فعل الكبار ...

تأَمل كلام عبدالقاهر فى أَى باب تشاء لا لتُحصِّل مادته فذلك شيء يجب أَن نكون قد فرغنا منه ، وإنما لترقب حركة عقله ، وهو يكابد الإبداع ، وخلق الأَفكار ، ويعتصر ما بين يديه من حقائق سلفه ليستخرج منها رحيقاً جديداً .

تأَمل باب التقديم الذى مابرح فيه يُلح على استنطاق كلمة سيبويه « إنما يقدمون الذى بيانه أَهم وهم بشأنه أَعنى » حتى غمغمت تلك المقولة بكل ما فى بحث التقديم مما يرى فى دلائل الإعجاز وكأنه على غير مثال .

تأَمل بحث القصر الذى أَسَّسَه على محاورة ذكية مع نصٍّ نقله من الشيرازيات ، ومازال يستَلُّ من هذا النص خيوطاً ويستخرج من الخيوط خيوطاً ، حتى قدَّم شيئاً جديداً ، ليس

هو كلام أبى على ، وليس مقطوعاً عنه ، وإنما هو متناسل منه كما يتناسل الحىّ من الحىّ .

وهكذا إذا تأملت كلام الشيخ مسألة مسألة ، وجدت جذورها فى كلام سلفه ، وفروعها منبثقة من فؤاده ، ودعك من هذه الهَرْطَقَةِ التى تقول إنه تلميذ لأرسطو ، فليس لها دليل واحد لايحتمل ، وقد كان الرجل ينبه إلى مصادر معارفه وهى على هذا الحد الذى وصفناه ، وليس فيه مسألة واحدة غائمة المصادر إلا عند من لاخِبْرَة له بالتراث الذى كان بين يدى الشيخ رحمه الله .

وقد عرضنا كثيراً من مسائله التى هى أوضح ما قالوا فيه إنه استلال من كهف يونان الزاخر وبَيَّنَا مصادرها بياناً لايلتبس (ينظر كتابنا خصائص التراكيب صفحات ٢٠ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، والتصوير البيانى صفحات ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥) .

ودع عبدالقاهر وانظر إلى تجربة أبى الفتح ، فى كتاب الخصائص وكيف استخرج من كلام سيبويه وأبى على وغيرهما

علماً ليس هو علم سيبويه ، ولا علم الفارسى ، وإنما هو علم أَبى الفتح ، وكما استخرج عبدالقاهر من مضابئ النحو علماً آخر هو علم المعانى استخرج أَبو الفتح من هذه المضابئ نفسها علماً آخر هو علم أَصول النحو وقياس العربية وهو عند ابن جنى « أَشرف ما صُنِّف فى علم العرب ، وأَذهبه فى طريق القياس والنظر ... وأَجمعه للأَدلَّة على ما أَودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمةونيطت به من علائق الإتقان والصنعة » (مقدمة الخصائص) .

ونُلفت هنا إلى شىء مهم ، وهو أَن اجتهاد أَهل الاجتهاد من أَئمتنا الكملة رضوان الله عليهم ، لم يكن اجتهاداً فى استخراج مسأَلة من مسأَلة ، أَو فى استخراج باب من باب ، وإن كان ذلك نفيساً وهو علينا عزيز ، وإنما كان يكون اجتهاداً فى استخراج علم من علم ، وتلك هى الغايات التى لا يدركها إلا الأَفراد . ومن العجيب أَننا سكتنا سكوت من لايعلم عن مناهج هؤلاء فى الاجتهاد والاستخراج ، وهى مناهج جديرة بأَن تُدرس ويُستخرج منها ، وتكون بدائل ذاهية لما ندرسه من

منهج البحث فى معاهدنا لأَنها تجارب كل خطواتها بين أَيدينا، ثم هى أَقرب إلى عقولنا لأَنها مستخلصة من علومنا ، ومناهج البحث الحديثة لم تخصب عقولنا كما نود ، ولم تحفز هممنا نحو الإبداع ، والوصول إلى حقائق علمية جديدة ، والذى هو المقصود أَساساً من إحكام مناهج البحث ، وليس هذا قدحاً فيها ، وإنما هو الواقع الذى نلمسه بأَيدينا ، ولم أَعرف عقلا أَلف مضغ المنهج والحداثة ثم انبثق عن حقيقة مفيدة .

وأَقول: إن استخراج مناهج هؤلاء الأَعلام ليس هو هذا التهاون الذى نجده فى الكتب التى صُنِّفت عنهم ، والتى نكتب فيها فصلا عن المنهج ثم نكتب فيه عادة حقائق مثل أَن هذا العالم كان ينسب الرأى إلى صاحبه ، أَو أَنه كان لا ينسبه، وأَنه يكون بصرياً فى مسأَلة ، أَو كوفياً فى مسأَلة ، أَو أَنه من مدرسة المتأَدبين ، أَو من مدرسة المتكلمين ، وأَنه كان يخرج الشعر ، والأَحاديث أَو أَنه لايفعل ذلك، إلى آخر هذه المعارف السطحية والتى يقع عليها القارىء المبتدىء .

ولابد أَن يكون دارس منهج العالم من هؤلاء الأَعيان قد فطن لكل كلمة قالها ، ووعاها وعياً يستطيع به أَن يقفُوَ

أثرها حتى يصل بها إلى منابتها فى كلام من سبقه ، أو يصل بها إلى انبثاقها فى نفسه ، ثم يصف بدقة قصة الفكرة فى عقل هذا العالم وكيف نمّاها ، ومن أى جهاتها جذبها حتى امتدت ، وكيف مَخَضها حتى أخرج مَحْضَها ، وغير ذلك مما تجده حياً واضحاً بين عينيك حين تديم النظر فى كلامهم وتعطيه حقه من العناية والصبر .

وهذا الباب الذى هو علم مناهج البحث فى علوم العربية لايجوز أن ينهض به المبتدىء مهما كان إخلاصه ، ومهما كان جده وذكاؤه ، وإنما ينهض به الشيوخ من علمائنا ، الذين عكفوا الفكر على هذه العلوم ، وانجَذَبَتْ رويَّتُهم إليها ، لأنها ليست دراسة فى كلام العلماء ، وإنما هى نظر فى منابع علومهم وترقيق أفكارهم بحركة عقولهم ، وارتياض قلوبهم للذى ارتاضته من عصية ، ومعاناة أفئدتهم فى اقتناص نافره ، وتأليف شارده ، ولا أقل من أن نحفظ لهؤلاء حرماتهم ، ونبعد بهم عن هذا اللغو اللاغب الذى ضُرب على عقولنا ، ولانتدب لدراسة هذ الجانب فى تراثهم إلا من كان أشبه بهم هدياً وسمتاً .

وتجلية روح الاجتهاد المنطوية فى التراث أمر ضرورى ، وإشاعة هذه الروح كأصل من أصول المعرفة أمر ضرورى وليس بين المتخصصين فى العلوم العربية والإسلامية فحسب، وإنما بين المشتغلين بالعلم فى كل فروعه ، لأن هذه الروح قيمة إبداعية ، وحضارية لايجوز إغفالها ، وقد غابت عن الساحة منذ زمن ، وصارت حياتنا الفكرية فى غيبة هذه القيمة تعانى عُقماً طاهراً . بل وعنوسة بغيضة شوهاء . والغريب أن هذا التراث المنطوى على عناصر تستهدف إثارة أقدس ما فى الإنسان من طاقات خلاقة ومبدعة ، يوصف بالجمود ، ويوصف المحافظون عليه بالجمود والتخلف ، وأنهم يريدون أن يرجعوا بنا إلى الوراء « تَخُبّ بنا النَجيبةُ والنَّجيبُ » وأنه ترّسخ فى نفوسهم أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وأن عيونهم لا ترى أضواء العصر الباهرة ، إلى آخر ما تجده فى كتابات تُذَيّل أسماء كاتبيها بأنه رئيس قسم كذا فى جامعة كذا ، وهذا دليل قاطع على أن القيم الإبداعية فى تراث الأُمة مطمورة مُغَيَّبة عن عيون علمائها !!

وليس هذا تقصيراً فحسب ، وإنما هو أمر منكر ، لاتجده إلا عندنا ، وكلنا يسمع من طلابه ، ومحدثيه ما يدل دلالة

قاطعة على أنهم يفهمون أن الحفاوة بالتراث والعكوف عليه يعني إلغاء الطاقات الخلّاقة ، والاكتفاء بالحفظ والاستيعاب إلى آخر مالا تجد فى نفسك أمامه إلا الحيرة ، والتَّلَدُّد ، ثم الصمت ، لأنه جهل بألف باء حقائق التراث . وتاريخ الفكر والعلوم فى أمة تمتلك تاريخها ، وحاضرها . ومن أهم ما غرس هذا الخطأ فى النفوس ارتباط كلمات التطور والتجديد والحداثة والمعاصرة بالأخذ عن الحضارة الغربية ، وكلمة التجديد ارتبطت إرتباطاً وثيقاً بأمرين :

١ ـ الرمى فى وجه القديم بعد قتله بحثاً !!

٢ ـ إغراء العقول بالفكر الغربى والترويج له ترويجاً ظاهراً .

وتجد الكتب تقوم على أساس عرض شريحة من الفكر السلفى ، وقد يساء اختيارها ، ويهمل فهمها ، مع الزعم أنها قتلت بحثاً ، ثم عرض شريحة من الفكر الغربى ثم التعليق على كلام القدماء بمثل هذا انظر لترى « وجهاً معروقاً بادى العظام شاحباً يسير الحظ من الحيوية والنضرة » ثم التعليق على كلام الغربيين بمثل هذا انظر لترى صورة أنضر وجهاً ، وأبهى قسمات من تلك الصورة التى عرضها حديث الأقدمين »

الكل يقول مثل هذا مع اختلافهم فيما بينهم من حيث المنازع والاهتمامات والأهواء،وقد يقال فى التعليق على كلام الغربيين شعراً ونقداً إننا لا نستقصى هنا ما فى هذه الصور من جمال ومتاع ، أو دقة ونفاذ لأن ذلك يطول ، ويقال فى التعليق على كلام علمائنا وشعرائنا إننا لا نستقصى ما فى هذا من فساد أو سطحية ، أو نثرية ، أو فقدان مقومات الشعر أو الفهم ، وكأنك فى معرض لوحات إعلامية للتشهير بالقديم « العربى الإسلامى » والتنويه بالحديث « الغربى المسيحى » ومع هزال هذا اللون من الإخراج وضعف مادته العلمية جداً والخطأ الصريح فى تفسير المعروض من الصور القديمة « التراثية » وركاكة المعروض من الصور الحديثة ، وسطحيته ، والانبهار الصارخ فى التعليق عليه ، أقول مع ظهور ذلك كله، فقد نفذت هذه الأفكار وغذت العقول والقلوب ، وشكلت وجهة نظر جيل كامل ، أصبح الآن قائماً على أمر العلم والفكر والأدب فى الجامعات وغيرها ، وقد صحبت هذه الأفكار جلجلة جهيرة بأستاذية قائليها ، وريادتهم ، وعلمهم الواسع بالتراث وجهادهم

(١) ينظر كتاب « فن القول » للشيخ أمين الخولى رحمه الله ، صفحات من ٣٣ إلى ٤٥ .

فى سبيل تجديده ، ومحاماتهم الشديدة عن القديم وغيرتهم عليه من عقلية الشيوخ ، وهذا الذى يرى كأنه هدم هو فى الحقيقة تجديد لعقل الأمة ، ووجدان الأمة ، وتراث الأمة أيضاً ،

وهذه النار التى يشعلها هذا الكلام فى عقل الأمة وتراثها ، هى النار العظيمة المقدسة ، التى تجلو الجوهر وتزيل الخبث إلى آخر ما أحاط بنفوس المبتدئين وهيأها لهذا الفساد فقرَّ فيها وتأثَّلَ . وبهذا ومثله وهو كثير ، ارتبط التجديد فى نفوسنا بالأخذ عن الغرب وارتبط التراث فى نفوسنا بمجافاة التجديد ثم الإغراق فى الجمود والدوران فى الدائرة المغلقة «مَحَلَّك سِرْ»

وغابت عن الأذهان فكرة انبثاق الجديد من غيب القديم وإشاعة طرائق المفكرين المسلمين ، واجتهادهم وجهودهم فى خلق المعرفة ، وقدراتهم الفائقة على تطويرها ، وكيف كانوا يصبون عقولهم على القليل الخافت فيصبح كثيراً نافعاً ، وكيف شقت عقولهم حجب الغيب عن خير كثير ، إلى آخر ما يلفت إلى تلك الطاقة الهائلة فى التراث والتى هى قادرة لو أتقن اصطناعها ، على إثارة ما أودع الله فى فطرة الإنسان من طاقات ، وابتعاث شعل القلوب والعقول تسطع وتدفىء . على

الحد الذى تجلى فى «القوس العذراء» . كل ذلك مسكوت عنه، ومضت البحوث والكتب على ما صيغت عليه العقول من النمط والمنوال الذى ذكرناه .

وكل من أراد أن يكون ابن عصره مجدداً ، متحرراً ، مستنيراً فهذا سبيله ، يسوق كلام القدماء فى المسألة ، ثم يعلق عليه بأنه صادر عن فقدان الوعى بكذا « بجوهر الشعر » ... بحقيقة التجربة ... بالصدق الفنى ... بالتناسق النفسى ... بوظيفة الخيال ... بحقيقة الصورة ... بطبيعة اللغة ... إلى آخر ما ترى ، والمهم أنه كلام صادر عن عدم وعى بالشىء الذى يعالجه ، ثم يذكر فى المسألة نفسها نصاً مقتبساً ويعلق عليه ، بأنه تحليل جيد لكذا أو فهم نافذ ووعى عميق إلى آخر ما تقرأ.

وهذا الأسلوب فى الكتابة سهل جداً وذلك مما أغرى به لأن هذه التعليقات - بالحق أو بالباطل - أيسر بكثير من الوقوف على النص لتفصيل مجمله ، وتوضيح مبهمه ، وتجلية جوهره إلى آخر ما يعانيه أهل العلم فى كل أمة .

وصدقنى إن كتابة الكتاب من هذا النوع المتجدد المتطور لأيسر كثيراً من فهم باب من كلام أبى الفتح ، فضلا عن سيبويه الذى يكاد يتغول العقول تغولا .

وصدقنى مرة ثانية إنك تستطيع أن تكتب من هذا اللون بحوثاً ومقالات ، تشغل بها الناس من غير أن تشعر بالرهق الذى يكاد يخلع نفسك ، وأنت تساور نصاً لبهاء الدين السبكى .

وبعد ...

فإن أكن قد أصبت شيئاً من عطاء هذه الرسالة الجليلة فذلك من فضل الله أستعينه سبحانه على شكره ، ثم أتقدم به إلى كاتبها الفاضل عرفاناً لفضله .

وإن كنت لم أصب فمرد ذلك إلى مالا يطاق له دفع ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

إنه من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان .

البلد الأمين فى ١٩ من ذى القعدة ١٤٠٢

د . محمد محمد أبوموسى

رقم الايداع بدار الكتب ٨٣/٤١٥٨
الترقيم الدولى ٠ – ٠٢٢ – ٣٠٧ – ٩٧٧